منى شكري العبود
العنوان: ذكرى شهيد

باردة أصابع الماضي حين تجتاح قلبي، تعتصر نياطه إلى أن تجمدها، تلوك بمرارتها نبضاته فتثلجها، كل شيء بي يغدو على وشك الموت، يتباطئ النفس، ألهث من الحياة شهقة أخيرة طويلة عصية، أحاول مرارًا فأفشل، كل خلية حيّة في جسدي قيد الاستسلام، فجأة تغتالني حرارة ذكرى ضحكاته.. بكائه..عفويته.. غضبه فتدب في شراييني الحياة وتهرول في جسدي البالي من جديد، سيبقى ولدي أبد الدهر حيًا في قلبي، في ذاك اليوم المشؤوم جاؤوا يزفونه إلي، تزغرد النساء خلفه، ويُكبر الرجال وهم يحملون جسده فوق أكتافهم، هرولت نحوه والصدمة تنهش قلبي، وضعوه أرضًا أمام عيناي، كان يضحك بعفوية ملائكية، لم يكن (محمد) يرتدي بذلته الجديدة التي اقتناها لموعد زفافه على محبوبته (سراب)، كان لا يزال في بدلته العسكرية التي خرج بها مودعًا إياي، يقبل يداي ويعدني أنه سيعود سريعًا، يحثني على إنهاء كل شيء ريثما يعود، كي لا يتم تأجيل موعد زفافه، لكنه عاد مضجرًا بدمائه!، يملئ وجهه خدوش شوهت صفاء ملامحه، عقلي لم يقدر على استيعاب ما يرى، ناجى قلبي أن يسعفه، لكنه خذله بهرولة سريعة جعلت في جمجمتي عاصفة هوجاء.. غبراء.. عفراء رمتني أرضًا بجانبه، أيقظتني أحدى النساء من غفوة الموت، نظرت حولي أرجوا أن أكون في حلم، لازال محمد أرضًا، و لازال ملطخًا بالدماء، صرخت من أعماق الألم، صرخت صوتًا شعرت أنه ثقب غلاف الكون بل مزقه، بكيت كما لم أبكي، عانقت وجهه، قبلت جبهته، تلطخت شفتاي بدمائه، تذوقت حلاوتها، كم كانت عذبة، احتشدوا يبعدوني عنه، رجوتهم.. توسلت إليهم.. لم يكن بينهم شخص رحيم، صرخوا، تحدثوا بلين، لم أكن أفقه مما يقولون شيئًا، ولم أسمع سوى صوتي الذي يصرخ بصوت قلبي:
_أرجوكم قولوا لي أنه لم يمت، أرجوكم قولوا لي أنه لازال حيًا، أنه عريس، زفافه في الغد، لا يمكنه التغيب، لقد جهزت كل شيء كما طلب، لقد ملئت سريره بالزهور الحمراء، لقد رتبت أساس منزله بفرح وسعادة، لم تكتمل فرحتي بعد، لا يمكنكم سلبها مني، أحضروا الطبيب، ربما هو جريح فقط، يحتاج لبعض الدواء، نعم لا بد أن هناك دواء يجعله ينهض قويًا من جديد، أنظروا إلى جسده، أنه قوي البنيان، لقد كان ولدي جبلًا، يستحيل أن تقتله رصاصة، ولدي أقوى من الموت، أرجوك يا رحيم أن ترحم قلبي....

استيقظت فوجدت نفسي في سريري وفوق رأسي النساء يتوشحن الأسود، معلنين الحداد، صرخت أسأل ببلاهة:
_ هل ثُبت الموت، هل أطلقوا مدفع الحداد، ألن يكون هناك عيد في حياتي بعد الآن، أين محمد؟!، لن يكتمل حفل الزفاف بدون عريس، أتريدون وأد فرحتي؟؟ لازالت جنينًا في رحم التكوين، لم تدرك المخاض بعد، كيف أمكنكم إجهاضها، أليس في قلوبكم رحمة؟...

اقتربت مني عروسه سراب، نظرت نحوها كما كان ينظر محمد، أنني أراها بعينيه، للمرة الأولى أراها وديعة جميلة لطيفة كما كان يصفها دومًا، كيف كنت أراها غير ذلك قبل الآن!، كيف كنت أرى منها مجرد لصة تريد سرقة ولدي مني كما سرقت قلبه؟، كيف رفضت تزويجه إياها لخمس سنوات مضت؟، كيف جعلت قلبه ينفطر كل تلك المدة؟، لماذا وقفت كسد منيع بينه وبين حلمه وسعادته؟، هاهو قد رحل خاويًا من السعادة، لم يرى في حياته سوى اليتم الذي أهداه الشقاء منذ الصغر، كان يكد ويسعى ليجعلني

سعيدة على الدوام، كان يهتم لحزني وفرحي، لعافيتي ومرضي، لم يطلب مني عوضًا في حياته، وعندما أراد شيئًا كنت في وجهه عائقًا، كيف طاوعني ضميري الإنساني قبل قلبي على فعل ما فعلته به!!...
عانقتني سراب على حين غرة، انتحبت على كتفي، شممتها اتبع أثر محمد، أنه تملك رائحته!، كيف يمكن لمن يحبهم الراحلون أن يملكون أثرهم هكذا؟!...
عانقتها بقوة، بكيت بحرقة ما فعلته بهما، ابتعدت عني تحدق في عيناي وتمسح بيدها دموعي، أنها تفعل كما كان يفعل عندما يراني باكية!، نظرت إلى ثوبها الأسود، امتعض قلبي بشدة، قلت:
_محمد لم يحب اللون الأسود يومًا، لن يعجبه هذا الثوب الذي ترتدينه، هيا اصعدي إلى شقتكما لقد جهزت لكِ ثوب الزفاف الأبيض، ووضعته على السرير، بجانبه عقد ماسي قد صنعه محمد لكِ بيديه قبل ذهابه، لقد قال لي أنكِ تحبين ما يصنع، لهذا أراد أن ترتدي في حفل زفافكما شيء من صنعه، لقد قال لي وعيناه تلمع بشغف:
_لقد صنعته لها بحفنة حب والكثير من العشق، لو تدرين يا أمي كم أنا هائم بها...

غص صوتي في حنجرتي حتى أختفى ببحر دموع فاض فأغرقه، عانقتني سراب حتى هدأ صخب حزني قليلًا، ثم ابتعدت عني بضع خطوات، سألتها:
_هل ستصعدين لترتدي ثوب الزفاف والعقد؟!.

تسمرت في مكانها دون حراك، كررت سؤالي وأنا أصرخ بقهر، التفتت نحوي وهي تقول:
_سأفعل...

غص صوتها حتى ابتلعته باكية، أنها تكذب لن تفعل!، لقد ارتبكت بشدة، كان محمد يقول أنه يعلم أنها كاذبة بمجرد ارتباكها، نقائها يجعلها شفافة لدرجة أنها يرى ما تواريه، لقد قال هذا أمامها ضاحكًا في ذاك اليوم، مما جعل وجنتاها تتقدان بجمر الخجل الممزوج بالغضب، كانت كذبتها صغيرة وديعة لا تستحق الإحراج، دعوتها في ذلك اليوم للطعام معنا، كانت بصحبة محمد في السوق يقتنون بعض الأشياء التي يحبونها ليملئوا عشهم بما يجمعهم، قالت في ذاك اليوم بارتباك أنها ليست جائعة وهو يعلم أنها تتضور جوعًا..
شهقت بعد غصة مميتة لاكت قلبي، ثم أردفت بحرقة:
_لقد كنت أعد له بالأمس ورق العريش، هو يعشقها، جهزت له منها الكثير، فقد أوصاني أن أفعل وهو يقول لي بضحكة ملؤها السعادة:
_ أريد في ليلة زفافي كل ما أحب.
لقد رحل وترك كل ما يحب خلفه باردًا، يعانق الموت تارة والحنين تارة، ويح قلبي كيف له أن ينبض في غيابه؟.

عاد ولدي الصغير (رائد) من دوامه المدرسي يهرول نحوي باكيًا، ارتمى في حضني يسأل:
_هل صحيحٌ ما يقولون؟ هل استشهد أخي محمد؟؟!!.

نظرت نحوه بعمق، أنقب في ذاكرتي عن يوم زواجي بأبيه، ثم حملي به، كان الأمر في بداية نشوب الحرب، نظرت نحو جارتي الثرثارة (أم فادي) التي تقف بين حشد النساء باكية، في ذاك اليوم قالت لي تنصحني:
_أن تزوجتي لا بد أن تنجبي، وأن أنجبتِ ذكرًا سيجعل محمد جندي في الجيش، و سيضطر مرغمًا للانضمام في صفوف المحاربين، وأنتِ متعلقة بمحمد بشكل جنوني، لن يسعدك الأمر ولن يهنئ لكِ عيش أن حدث ذلك.

دمعة حارقة انبجست من جوف عيناي وتدحرجت تحرق وجنتاي، قلت بغصة شبه مكتومة وأنا أنظر نحوها:
_كنتِ محقة.

علمت ما أرنو إليه فهزت رأسها وهي تقول باكية:
_قد قدر الله، قد شاء الله، قولي الحمد لله واحتسبي أمركِ عنده، هو في مكان أفضل وأهنأ.

يا ليت الشعور بهوان الكلام...
ياليت الشعور بهوان الكلام.